مع ابن الأزرق في مخطوطته :

بدائع السلوك في طبائع الملوك

وحديثه عن : السفارة والسفراء

الدكتور عبد الهادي التازي

يوجد عدد كبير من رجالات العلم ، والحديث ، والفقه ، والتاريخ ، والأدب ، ممن يحملون اسم الأزرق أو ابن الأزرق أو الأزرقي في المشرق والمغرب ... والأزرق جدّ قديم من أجداد العرب في الجاهلية ، يتصل نسبه بالعمالقة ، وكانت منازل بيته بالحجاز .. وإليه ينسب في - بعض الروايات - المؤرخ اليماني محمد بن عبد الله بن أحمد بن الأزرق من أهل مكة ، وصاحب كتاب (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار) والمتوفى سنة ٢٥٠ ، وقبل مؤرخ مكة ، نعرف عن أبي راشد نافع بن الأزرق البصري الحنفي رأس الأزارقة ، وإليه نسبتهم ، الذي صحب عبد الله بن عباس وكان هـو وأصحابُه من أنصار الثورة على سيّدنا عثمان وموالاة الإمام علي ، رضي الله عنهما ، إلى أن كانت قضية التحكيم بين علي ومعاوية . قتل على مقربة من الأهواز عام ٦٥ في أعقاب مقاتلة المهلّب بن أبي صفرة له . . . كما نعرف عن الحافظ حماد بن زيـــد الأزرق شيخ العراق في عصره الذي ولد وتوفي بالبصرة (عام ١٧٩) وعن أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الأزرق الذي ورد من مصر على الأندلس وتوفي بقرطبة (سنة ٣٨٥) والمؤرخ عبد الله بن محمد ابن الأزرق المتوفّى عام ٥٩٠ ... هذا إلى الكاتب المعروف محمد ابن هذيل الشهير بابن الأزرق الذي خاطب الملكة فونيـــا Fona يخبرها

بوصول السفراء المغاربة من حصن القلاعة أوائل ذي الحجة عام (٦٤٧) وغير هؤلاء من الزرق الذين تناهت إلينا أخبارهم وفي صدرهم مترجَمُنا اليوم قاضي غرناطة ووزيرها وسفيرها أبو عبد الله بن الأزرق ...

ويظهر أنه لا صلة بين أسرة الأزرق هذا وبين الأسر التي تحمل لقب الأزرق ببعض المدن المغربية، وبفاس على الخصوص، فإن هذه الأسر، أو بعضها على الأقل، وردت للمدينة من الجبال، وقد كان جدي الأم السيد عبد الرحمن بن عبد السلام الأزرق يذكر أنهم من صنهاجة السراير بإقليم الحسَيمة من بطن هناك يعرف بني زرقت، لقبوا بذلك لأنّ عيون أغلبيتهم زرقاء.

وكما أنه ليس ببعيد إطلاقاً أن يكون أصل بعض أسر الأزرق منحدراً من الديار الأندلسية عبر الجبل، فإن التلقيب بالألوان معروف بالمغرب كما بغيره من سائر الجهات، كالأخضر، والأحمر، والأبيض، والأشقر، والأكحل، على نحو ما عهد من التلقيب بمختلف المِهَن والحِرَف كالقاضي والمفتي، والفقيه، والمؤذن، والخطيب، والإمام، والنجار، والحداد، والصباغ، والعطار.

ويعتبر القاضي ابن الأزرق من عيون رجال الفقه والأدب والعلم، الذين عرفهم القرن التاسع الهجري، وقد أفاد السّخاوي أنّ ابن الأزرق كان من الملازمين للأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد بن فتوح مفتي غرناطة: في النحو، والأصلين والمنطق (١) كما كان من الذين يحضرون

(١) اشتهر الشيخ ابن فتوح هذا بسلوك منهاج تربوي خاص مع طلبته، حيث يفسح لهم المجال كاملاً للبحث والتعقيب والتعليق، بل إنه لا يرضى منهم بالتسليم المطلق والمتابعة العمياء .. ويأتي هذا المنهج وسطاً بين مذهب العبدوسي =

مجالس أبي عبد الله محمد بن محمد السرقسطي عمدة غرناطة في العلوم الفقهية ، ومجالس الخطيب أبي الفرج ، عبد الله بن أحمد البقني ، ومجالس قاضي الجماعة بها أبي العباس أحمد بن أبي يحيى الشريف التلمساني . . . كما أنه كان من أقرب الناس إلى بلاط بني نصر ، فهو لذلك من أقطاب السياسة في ذلك العهد . وإذا ما تتبعنا آثاره سواء منها النثرية والشعرية ، فسنجد أنه ليس رجل وظيف شرعي ، ولكنه رجل دولة ، وكاتب ملك ، وأن سلطان بني نصر كان يؤثره بأسرار لا يبثها إلى قاضي الجماعة ، الأمر الذي يدل عليه قوله يخاطب شيخه الحافظ القاضي أبا القاسم بن سراج وقد طلب إليه هذا الأخير أن يجتمع به في ظروف اضطراب ، مؤملاً أن يحصل منه على سر من أسرار السلطان . . . لقد باعده الوزير ابن الأزرق معتذراً بهذه الأبيات البديعة الرائعة لفظاً ومعنى :

فديتك لاتسأل عن السرّ كاتبا فتلقاه في حال من الرّشد عاطل
وتضطره إمـــا لحـــالة خائن أمانتـه أو خائض في الأباطـــل
فلا فرق عندي بين قاض وكاتب وتّثني ذا بحق أو قضى ذا بباطل

وقد كان من أبرز الذين سجّلوا لهم مواقف حاسمة عندما اضطربت الأحوال في غرناطة واختلط الأمر على الناس ، فنكثوا بيعة السلطان أبي الحسن النصري ، وبايعوا عوضه ابنه محمداً ، فقد كان من رأي القاضي ابن الأزرق ، والمفتي أبي عبد الله المواق ، وكذا سائر فقهاء غرناطة أن مثل هذه المبادرة في مثل تلك الظروف إنما تخدم مصلحة العدوّ ولا تنقذ الموقف في شيء ، وأنها شبيهة بتبديل الفرس أثناء عبور النهر الهائج المائج ...

= (ت ٨٤٧) ومذهب المشدالي (ت ٨٦٤) ن المقري : الرياض تحقيق السقا ، الأبياري ، شلبي . طبع المعهد الخليفي تطوان ١٩٣٩ ن ٣/٣٠٤ — ٣١٧ ن نفح الطيب تحقيق إحسان عباس طبع دار صادر ١٩٦٨ — ٢ / ٧٠٠ ن التازي : جامع القرويين بفاس طبعة دار الكتاب اللبناني بيروت ٢/٤٢٨ .

وهكذا وقع فتوى شجب فيها فعل الناكثين أواسط شهر رمضان من عام ٨٨٩ بالرغم من المخاطر التي كانت تحتف به وهو يقدم على هذا الموقف الجريء .

وقد اقتضت منه غيرته على تداعي الديار الأندلسية وتوالي انكسارها أن يفكر — إثر هذه الفتوى — في السفارة لدى ملوك المغرب والمشرق آملاً في إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وترقباً في الحصول على نجدة من شأنها أن تردع الأعداء المتربصين ، وتبقي على الوجود الإسلامي ببعض تلك الديار .

ولما كانت ظروف المغرب الأقصى آنذاك قد بلغت من الاضطراب والقلق درجة لا تمكنه من الالتفات لما يجري في العدوة الأخرى فقد وفد القاضي إلى تلمسان بعيد الثمانين وثمانمائة [1] وكان يحكمها آنذاك العاهل أبو ثابت الثالث ، ولكن السفير ابن الأزرق ، وقد شعر بانشغال الناس عنه بالتصدي للمناورات والمضايقات التي كانت تحاك ضدّ الجزائر من طرف الأجنبي ، اتجه نحو مصر لدى الملك الأشرف قايتباي محمد بن علي . . .

وهناك لقي كل ترحيب وتكريم ، لكنه فهم من المسؤولين هناك أنهم يدركون أن أمر الأندلس قد انتهى ، وأنه لافائدة ترجى من تدارك المحتضر الذي يسلم نفسه الأخير «فكان كمن يطلب الأنوق أو الأبيض العقوق»[2] . وهكذا فقد اقترحوا عليه أن يغدو أولاً للقيام بمناسك الحج قبل أن يعطوا له الجواب النهائي ، وكانوا في واقع الأمر يتوقعون وصول المزيد من الأخبار عن الأندلس ، هذا أيضاً إلى إنشغال الملك بمنازلة السلطان العثماني بايزيد الثاني[3] .

(١) أزهار الرياض ٣/٣١٨

(٢) نفح الطيب ٢/٧٠٢

(٣) السلطان بايزيد الثاني من أعظم سلاطين آل عثمان ، فتح عدداً من القلاع والحصون ، وبنى طائفة من المدارس والجوامع والمستشفيات ، وما يزال حيّ بكامله يحمل باسطانبول اليوم اسم بايزيد ، كان يحاول احتلال بعض الجهات

وقد قصد القاضي ابن الأزرق الحرمين الشريفين حيث قام بأداء الفريضة ، وعاد أول سنة ٨٩٦ للقاهرة لمتابعة القيام بمساعيه التي من أجلها رحل ، ولكنه وجد أن الأخبار التي يتوفر عليها السلطان قايتباى كانت تنذر بأن كل شيء بالديار الأندلسية في طريقه نحو النهاية .

لقد بلغت الأخبار الحزينة فعلاً عن سقوط العاصمة غرناطة وأخذها من يد الأمير محمد بن أبي الحسن منذ ربيع الأول من عام ٨٩٥ .

وكانت للسلطات مع السفير جلسات مهمة أفهمه السلطان فيها أن قضاء الله قد نفذ ، وعرض عليه بهذه المناسبة خطة قضاء القضاة في بيت المقدس تسلية له وتلهية ، عوضاً عن القاضي شمس الدين محمد بن مازن الغزي . ووصل الإمام ابن الأزرق إلى القدس يوم الاثنين ١٦ شوال ٨٩٦ حيث قضى هناك ردحاً من الزمان محاطاً برعاية تلاميذه من مريدي الفقه المالكي ، واحترام معارفه ممن كان (حيّ المغاربة) بالقدس(١) يزخر بهم ، لا سيما وقد كان يضيف إلى علمه واطلاعه جمال الشكل ، وإنارة الشيبة ، وسيمة الأبهة والوقار ، والنزاهة والصيانة والطهارة .

التابعة لـ : قايتباي ، فكان هذا منصرفاً بكليته لصد الهجوم ، وقد أنفق أموالاً طائلة في هذا القتال الذي حال دون تلبية عدد من نداءات ملك غرناطة ، ولكنه مع ذلك كان يحاول بالطرق الدبلوماسية أن يبلغ قلقه للإسبان ، وربما تهديداته كذلك بواسطة القسيسين والرهبان المتواجدين في القدس الشريف .

مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، الطبعة الوهبية مصر ١٢٨٣ م ٢/٥٩١ . الزركلي : الأعلام مادة قايتباي .

(١) عبد الهادي التازي : (حي المغاربة بالقدس) نشر في مجموعة موسوعة العتبات المقدسة للأستاذ جعفر الخليلي دار التعاون ، بغداد ، المجلد الأول ٩٥ — كما نشر بمجلة مركز الدراسات الفلسطينية المجلد الأول العدد الثالث شتنبر ١٩٧٢ ٥/٧ وبملحق العلم الأسبوعي الثقافي ١٤ يناير ١٩٧٢ .

لكنه كان يغص من هول الأنباء المتلاحقـة من الأندلس . . . فتناوشته الهموم ولم يَقْوَ على تحمّل الصدمة والغربة في آن واحد ، لم يبق عنده بستان ولا مركب ولا مسكن على ما يقول في نونيته المعروفة ، وهكذا توعّك ولم تلبث أنفاسه أن فاضت بعد نحو من شهرين من توليه القضاء حيث توفي يوم الجمعة ١٧ من ذي الحجة الحرام ٨٩٦ بعد الفراغ من الصلاة ، وصلي عليه في يومه بعد صلاة العصر بالمسجد الأقصى ، وحشر إلى جانب حوش البسطامي من جهة الغرب .

* *

لقد خلف القاضي ابن الأزرق تراثاً أدبياً فاخراً تجلى في هذه المقطعات الشعرية الجيدة التي نقلتها عنه الموسوعات الأندلسية الأدبية ، فمن تلك القطع هذه الأبيات التي نظمها عند نزول طاغية النصارى بمروج غرناطة ، والتي تعبر عما كان يحس به من الآلام ، وهو يعيش الأيام الأخيرة بالأندلس(١) :

مشوق بخيمات الأحبة مولع ... تذكره نجـد وتغريه لعلع
مواضعكم يالائمين على الهوى ... فلم يبق للسلوان في القلب موضع
ومن لي بقلب تلتظي فيه زفرة ... ومن لي بجفن تنهمي فيه أدمع
رويدك فارقب للطائف موضعا ... وخل الذي من شره يتوقع
وصبراً فإن الصبر خير غنيمة ... ويا فوز من قد كان للصبر يرجع
وبت واثقا باللطف من خير راحم ... فألطافه من لمحة العين أسرع
وإن جاء خطب فانتظر فرجاً له ... فسوف تراه في غد عنك يرفع
وكن راجعاً لله في كل حالة ... فليس لنا إلا إلى الله مرجع

ومن نونية خفيفة تنسب إليه بلغت زهاء المائة بيت ، هذه الأبيات

(١) النفح ٧٠٤/٢

التي تعكس مشاعره وروحه المرحة وهي على ما يظهر من نظمه في المهجر :

لا أم لي لا أم لي ... إن لم أرد شجني
وأحامنْ في الجو ... ن والتصابي رسني
يا عاذلي في مذهبي ... أرداك شربُ اللبن !
أعطيت في البطن منا ... نا إن تخالف سنني
وإن نُسفّه نظري ... ومذهبي وتهني
فالصفع تستوجبه ... نعم ، ونتف الذقن
والنفي تستوجبه ... لواسط أو عدن !

* * *

أفدي صديقاً كان لي ... بنفسه يسعدني
فتارة أنصحه ... وتارة ينصحني
وتارة ألعنُه ... وتارة يلعنُني
وربما أصفعه ... وربما يصفعني

* * *

دهر تولّى وانقضى ... عني كطيف الوسن
يا ليتني لم أره ... وليته لم يرني
دنّست فيه جانبي ... وملبسي بالدرن
وبعت فيه عيشتي ... لكن ببخس الثمن !
كأنني ولست أدْ ... ري الآن ما كأنني !!

* * *

لو أنصف الدهر لما ... أخرجني من وطني !
وليس لي من جنة ... وليس لي من مسكن

أسرّح الطرف وما لي دمنة في الدِّمَن
وليس لي من فرس وليس لي من سكن!
ياليت شعري وعسى ياليت أن تنفعني

* * *

هل للثريد عودة إليّ؟ قد شوقني
ولي إلى الاسفنج شو قٌ دائم يطربني
وللأرز الفضل إذ تطبخه باللبن
وهات ذكر الكسكو فهو شريف وسنّي
لا سيما إن كان مصـ نوعاً بفتل حسن
أرفع منه كوّراً بهن تدوي أذني
وإن ذكرت غير ذا أطعمة في الوطن
فابدأ من المثوما ت بالجبن المكن
من فوقها الفروج قد أمسى في التسخن
وثنّ بالمصيدة الـ ـتي بها تطربني
والزبزبنّ في الصحـ ـاف حسبُ أهل البطن(١)

ومن شعره في مدينة بسطة:

في بسطة حيث الأباطح مشرقهْ أضحت جفوني بالمحاسن معلقهْ

وله أيضاً فيها:

قل لمن رام النوى عن وطن قولةً ليس بها من حرج
فرّج الهم بسكنى بسطة إن في بسطة بابَ الفرج(٢)

---

(١) النفح ٣/٢٩٨

(٢) النفح ٦/٤٤٧

ومن نظمه سينية بديعة من نحو أربعين بيتاً في مدح شيخه العلاّمة أبي يحيى ابن عاصم هذا مطلعها :

خضعت لمعطفه الغصون الميَّس ۞ ورَنا فهام بمقلتيه النرّجس
بك مجلس الأنس اطمأن وبابن عا ۞ صم اطمأن من الرياسة مجلس
بدر بأنوار الهدى متطلع ۞ غيث بأشتات الندى متبجس(١)

ومن نظمه قوله في المجبّنات :

ورب محبوبة تبدت ۞ كأنها الشمس في حلاها
فاعجب لحال الأنام من قد ۞ أحبها منهم قلاها !

ومن شعره في جمال الربيع قوله :

تأملت من حسن الربيع نضارة ۞ وقد غرّدت فوق الغصون البلابل
حكت في غصون الدوح قساً فصاحة ۞ لتعلم أن النبت في الروض باقل

ومن شعره في الرثاء قوله في والدته :

تقول لي ودموع العين واكفة ۞ ما أفظع البينَ والترحال ياولدي
فقلت أين السرى؟ قالت: لرحمة من ۞ قد عز في الملك لم يولد ولم يلد

غير أن ما تركه الإمام ابن الأزرق من مؤلفات قيمة طغى على سائر مناحي نشاطه الفكري فقد تحلى فيما دبجته يراعته في مختلف العلوم والفنون ماجعله مثار إعجاب الذين كتبوا عنه أو قرأوا أو سمعوا . . وقد كان منها كتاب (الإبريز المسبوك في آداب الملوك) و (روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم

---

(١) أزهار الرياض ٣/٣٢٢ ، وقد تشكك في النفح في نسبة هذه السينية لابن الأزرق ، هذا كما نسب الأبيات الثلاثة الماضية (فديتك لا تسأل عن السر) لابن عاصم . النفح ٦/١٥٢

الإسلام) و (شفاء الغليل في شرح مختصر خليل)(١) هذا إلى ماأثر عنه من فتاوى نقلها عنه صاحب المعيار في جامعه(٢). وقد رأيت أن أقدم بين يدي الباحثين اليوم عرضاً عن مخطوطته الفريدة « بدائع السلك في طبائع الملك » التي لخص فيها كلام ابن خلدون في مقدمة تاريخه وكلام غيره ولكن مع زوائد كثيرة(٣)...

(١) وقف الإمام المقري على جملة من هذا الشرح بتلمسان تتألف من ثلاث مجلدات ويقدر صاحب النفح أن يصل الكتاب إلى عشرين مجلداً حيث أن المجلد الأول لم يكمل مسائل الصلاة. قال المقري : « لم أر في شروح الخليل – مع كثرتها – مثله ».

(٢) كان منها فتواه باستنكار نكث بيعة أبي الحسن النصري.

(٣) وقفت في المكتبة العامة بالرباط على أربع نسخ من المخطوط المتحدث عنه علاوة على ما يوجد منه في خزانة جامعة القرويين والخزانة الملكية الأول رقم ج /٦٤ كمل نسخها في أوائل صفر عام ٩٩٨، عدد صفحاتها ٥٢٩ تحتوي الورقة على واحد وعشرين سطراً من قياس ٢٥,٥ س على ١٨,٥ بينما النسخة الثانية رقم ج / ٩٣ عدد صفحاتها ٢٩٧ تحتوي الصفحة على خمسة وعشرين سطراً قياس ٢٢,٥/ ١٧,٥ والثالثة رقم د ٢٨٥٥ عدد صفحاتها ٥١٢ قياس الصفحة ٣٠/ ٢١,٥ وقد نسخت في جمادى الأولى عام ١٢٦٣ – أما النسخة الرابعة فتحمل رقم د/ ١٣٤٠ عدد صفحاتها ٦٤٨ تحتوي كل صفحة على واحد وعشرين سطراً قياس الصفحة ٢٢,٥/١٧,٥

ويبتديء الكتاب هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله. قال الشيخ الفقيه الخطيب البليغ البارع العالم المتفنن المتبحر الصدر الإمام الأوحد فخر علماء الأندلس في عصره في العلوم وسيد وقته في العلوم قاضي الجماعة السيد أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق الأصبحي وصل الله عزته وحفظ في الأعلام العلماء رتبته : الحمد لله مالك الملك إيجاداً وتدبيراً ومبدعه من فيض جوده عليا بأسرار وجوده خبيراً...

وينتهي بالصلاة على النبي الكريم « وعلى آله والأبرار الصحابة الناصحين في الإعلان والإسرار ماتعاقب الزمان يوماً وغدا، وراح إليه مشتاق الوصول وغدا..



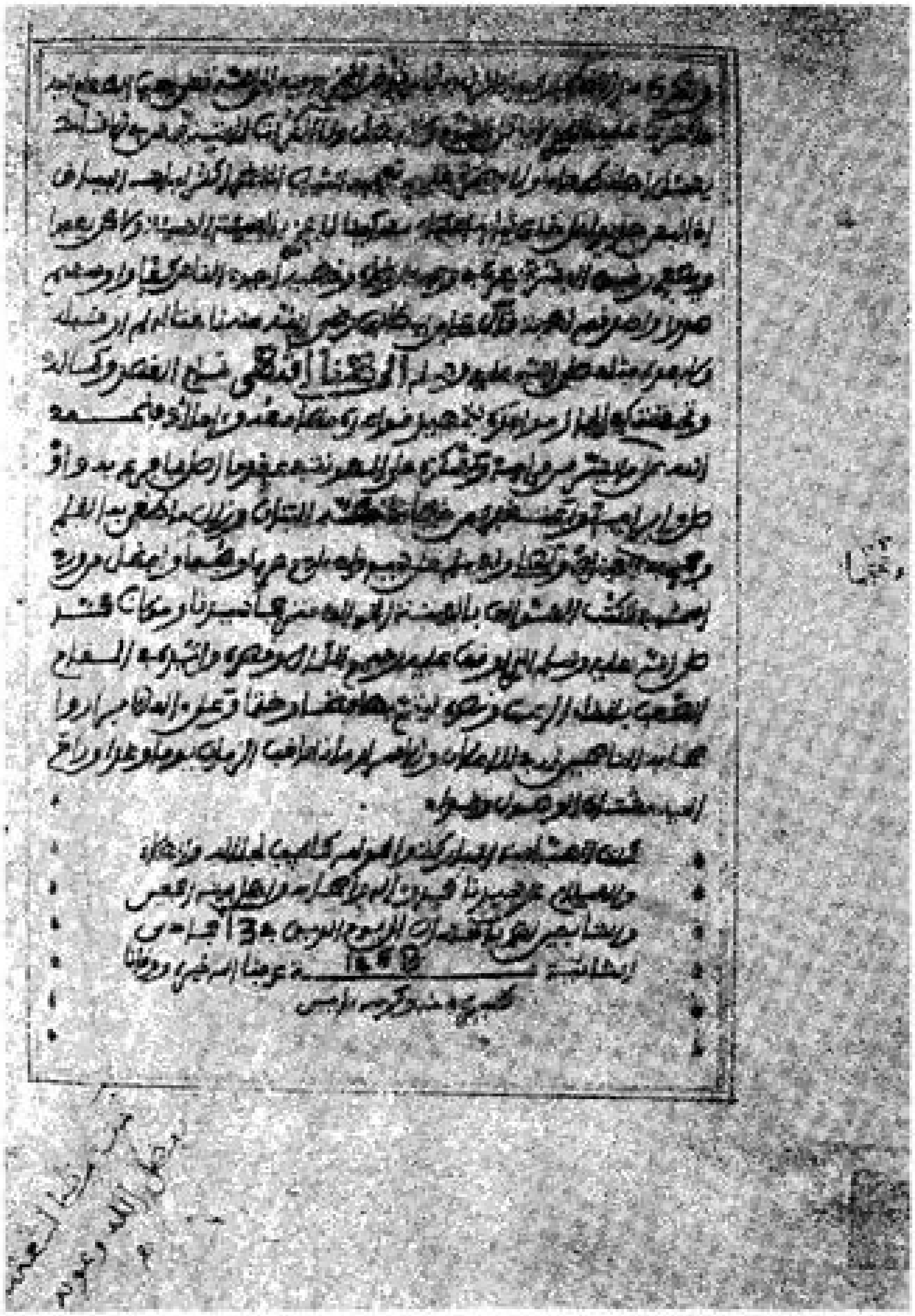
(النسخة ج/٦٤) الصفحة الثالثة« سميته ببدائع السلك في طبائع الملك » وفي النسخة د/٣٢ كتابة العنوان هكذا: «بدائع السلوك في طبائع الملوك » يقول: لو تخصصت السياسة بلحظ جانبها المرعي الإمام، وأعمل في فائدة عملها، بعتبرها في التصريف ومعملها، واجب العناية بها والاهتمام لناسب أن يسمى بتحبير السياسة في تدبير السياسة، فهي العلم الذي لا يستغني عنه سوقة ولا ملك، ولا من نهج به في التقويم سبيل الرشد القويم وسلك، فمن سماه بذلك فوجهه وضاح الأسرة مشرقها، ولحظه في الاعتبار المناسب أصيل المناسب معرقها.



النسخة ج/٩٣ . اشتهر عن القاضي ابن الأزرق أنه كان في كتابه « بدائع السلوك » متأثراً جداً بابن خلدون ، بل إنه يكتفي أحياناً بنقل كلامه حرفياً ... وهذه الصفحة من المخطوطة ، حول أن للدول أعماراً محدودة كالأشخاص ، تعطي فكرة عن مدى صحة هذا القول الذي يظهر أن له نصيباً ، من النظر ولو أن ابن الأزرق حرص كثيراً على أن يدلي برأيه فيما يلخصه ، الأمر الذي يدل على أنه ليس مجرد ناقل .. لاحظه هنا يعقب : قلت : تقدم له قبل هذا أن طول أمد الدول على نسبة القائلين بهـا في القلة والكثرة ، واستظهر على ذلك بشهادة الواقع من طول أمد كثير من الدول ، ثم هو هنا يقدر عمرها بما ذكر ويجعله طبيعياً ، فانظر فيه متأملاً .



النسخة د/٥٨٢ . كما يحكي ابن رضوان أن الوزير الشهير أبا عبد الله بن الحكم (صوابه : الحكيم) لما وفد رسولاً عن سلطانه ملك الأندلس على السلطان أبي يعقوب ملك المغرب ، قال له : ما طلب سلطانك بعد أن فعلنا له كذا وأسعفناه بكذا .. وعدد ما قدمه إليه من الصنائع الحسنة ، فقال له : نعم يا مولانا رضي الله عنكم ، كل ذلك كان ولم ينكره مولاي ولا جهله ، لكن لسان حاله ينشد : أيا ملبسي .. « البيت » .



النسخة د/١٣٤٠ آخر ورقة من المخطوط التي تعالج، كمسكة الختام، بيان مايدل من الأخبار على فضل النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا نزل به الأمر فوّض الخرج فيه إلى الله تعالى . أحب الطعام إليه ماكثرت عليه الأيدي .. أكثر لباسه البياض .. لايجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح ... أجود الناس كفاً ، وأوسعهم صدراً ، وأصدقهم لهجة ... صلى الله عليه وسلم ... وعلى آله الأبرار وأصحابه الناصحين له ، في الإعلان والإسرار ، ماتعاقب الزمان يوماً وغداً ، وراح إليه مشتاق الوصول وغدا » . ويلاحظ أن هذه النسخة كملت يوم ١٣ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ .

وبخاصة أريد سوق كلامه عن (الرسالة والوفود) وما أثار انتباهه مما قيل عن الموضوعين في المؤلفات التي سبقته ، وذلك تنويها بالكتاب وإشادة ، وتدليلاً عليه ، تكميلاً للفائدة التي قدمها إلينا ، لحد الآن ، سائر الذين عنوا بابن الأزرق .

رتب الكاتب ابن الأزرق مؤلفه ترتيباً دقيقاً ، وتفصيلاً متقناً ، أمكن معه أن نستخلص للمخطوط فهرساً تقريبياً يستوعب سائر مادته ويعطي فكرة عن محتوياته ، سواء منها رؤوس الأقلام أو مايندرج أو يتفرع عن تلك الرؤوس.

ولعل من المفيد أن نتحمل استعراض هذا الفهرس أمامنا لنشوق الباحثين لمراجعة المخطوط واستشارته ، وذلك قبل أن نقدّم الفصل الذي وقع عليه اختيارنا . . .

يستهلّ الكتاب بمقدّمتين ، الأولى في تقرير ما يوطئ للنظر في الملك عقلاً وفيه عشرون سابقة . . . بينما تعالج المقدّمة الثانية تمهيد أصول من الكلام في الملك شرعاً وفي هذه عشرون فاتحة .

وبعدها يجزىء المخطوط إلى كتب أربعة وخاتمة .

الكتاب الأول : في حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرياسات وفيه بابان : الأول في حقيقة ذلك وفيه ثلاثة أنظار : النظر الأول في حقيقة الملك وفيه خمس مسائل . . . النظر الثاني في حقيقة الخلافة وفيه خمس مسائل ... النظر الثالث في سائر أنواع الرياسات . . . أما الباب الثاني فهو في سبب وجود الملك وشرطه ، والنظر في طرف سببه ومابه قضى الله ذلك الفرط وهو الحرب والقتال وفيه ثلاثة أطراف : الطرف الأول في سبب وجود الملك ، الثاني في شرط وجود الملك وهو العصبية أو مايقوم مقامها ، الثالث في الحروب التي تفضي إليها العصبية في طلب الملك أو الدفاع عنه أو غير ذلك، وفيه ذكر الأمم في ترتيبها ومايلزم في تدبيرها من الأدب والمكائد .

الكتاب الثاني : في أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة" وكمالاً وفيه بابان : الأول في الأفعال التي تقام بها صورة الملك ووجوده وهي عشرون ركناً : الركن الأول نصب الوزير وفيه مقدمتان وثلاثة مطالب ـ الثاني إقامة الشريعة ـ الثالث إعداد الجند ـ الرابع حفظ المال ـ الخامس تكثير العمارة فيه مقدمتان وثلاثة مقاصد ـ السادس إقامة العدل ـ السابع تولية الخطط الدينية ـ الثامن ترتيب المراتب السلطانية ـ التاسع رعاية السياسة ـ العاشر مشورة ذوي الرأي وفيه مقدمات ومقامات ـ الحادي عشر بذل النصيحة ـ الثاني عشر في أحكام التدبير ـ الثالث عشر تقويم الولاة والعمال ـ الرابع عشر كثرة اتخاذ البطانة وأهل البساط ـ الخامس عشر تنظيم المجلس ـ السادس عشر تقدير الظهور والاحتجاب ـ السابع عشر رعاية الخاصة والبطانة ـ الثامن عشر ظهور المنابة لمن له الحق ـ التاسع عشر مكافأة ذوي السوابق ـ العشرون تخليد مفاخر الملك ومآثره . أما الباب الثاني ففي الصفات التي تصدر منها تلك الأفعال على أفضل نظام ، والمقرر منها عشرون قاعدة ومقدمات . القاعدة الأولى العقل وفيها مسائل ـ الثانية العلم وفيها مسائل ـ الثالثة الشجاعة وفيها نظران ـ الرابعة العفة وفيها مسائل ـ الخامسة السخاء والجود وللنظر فيها منهاجان ـ السادسة الحلم وفيها مسائل ـ السابعة كظم الغيظ والغضب ، وفيها طرفان ـ الثامنة العفو وفيها مسائل ـ التاسعة الرفق وفيها مسائل ـ العاشرة اللين ـ الحادية عشرة التثبت وفيها مسائل ـ الثانية عشرة الوفاء بالعهد وبالوعد وفيه طرفان ـ الثالثة عشرة الصدق والكذب وفيها مسائل ـ الرابعة عشرة كتم السر وفيها مسائل ـ الخامسة عشرة الحزم ، وفيها مسائل ـ السادسة عشرة الدهاء والتغافل وفيها نظرات ـ السابعة عشرة التواضع وفيها ثلاثة مطالب ـ الثامنة عشرة سلامة الصدر من الحقد والحسد وفيه طرفان ـ التاسعة عشرة الصبر وفيه مسائل ـ العشرون الشكر وفيه مسائل...

الكتاب الثالث : فيا يطالب به السلطان تشيداً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده وفيه مقدمة وبابان ـ المقدمة في التحذير من محظورات تخلّ بذلك شرعاً وسياسة . الباب الأول : في جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان ومن يليه وفيه ثلاثة فصول : الفصل الأول ، في سياسة السلطان ويندرج تحته سياسات ، الأولى سياسة الرعية . الثانية سياسة الأمور العارضة التي هي الجهاد والسفر والشدائد النازلة والرسالة والوفود ـ الفصل الثاني في سياسة الوزير وفيه ثلاث سياسات ... الفصل الثالث في سياسة سائر الخواص والبطانة في صحبة السلطان وخدمته ـ أما الباب الثاني ففي واجبات يلزم السلطان سياسةً القيام بها وفاء بعهدة ماتحمله وطلب منه .

والواجب الأول حفظ الدين ، والواجب الثاني تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين ، والواجب الثالث إقامة الحدود وفيه مسائل ، والواجب الرابع في عقوبة المستحق وتعزيره ـ الواجب الخامس رعاية أهل الذمّة وفيه مسائل .

الكتاب الرابع : في عوائق الملك وعوارضه وفيه بابان : الأول في عوائق الملك المانعة من دوامه ، وفيه ثلاثة أنظار : النظر الأول في التعريف بالعوائق . العائق الأول حصول الترف والتنعيم للقبيلة ـ الثاني لحاق المذلة للقبيل ـ الثالث استحكام طبيعة الملك ـ الرابع إرهاف الحد ـ الخامس الحجاب الواقع دليلاً على الهرم ـ السادس حجر السلطان والاستبداد عليه ـ السابع استظهار السلطان على قومه ـ الثامن انقسام الدولة الواحدة بدولتين . النظر الثاني في التعريف بكيفية طروء الخلل إلى الدول . النظر الثالث في التعريف بأن مقتضى الإنذار يمنع دوام الملك .

أما الباب الثاني ففي عوارض الملك اللاحقة لطبيعة وجوده ، وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول في عوارض الملك من حيث هو وفيه مسائل ـ الثاني في اختيار المنازل الحضرية وفيه مسائل ـ الثالث في اكتساب المعاش بالكسب والصنائع وفيه مسائل ـ الرابع في اكتساب العلوم وفيه مسائل . . .

الخاتمة في سياستي المعيشة والناس وفيها مقدمتان وسياستان ، المقدمة الأولى في التقوى ، والثانية في حسن الخلق وفيها مسائل ـ السياسة الأولى : سياسة المعيشة ، وفيها ثلاثة مطالع : المطلع الأول في كليات مما تدبر به المعيشة من جانب الوجود وفيه إشارات . . . المطلع الثاني في أمهات مما تحفظ به من جانب العدم وفيه إضاءات ، المطلع الثالث : في مهمات دينية يعتبر بها حفظ المعاش من جانبي الوجود والعدم وفيه لوامع . . . السياسة الثانية : سياسة الخلق وفيه مقدمات وست مسائل : الأولى في ملك اللسان ـ الثانية ملك الحواس ـ الثالثة في صورة الإنسان ظاهراً وباطناً ـ الرابعة في أحوال الإنسان الخارجة عنه ـ الخامسة في الإخوان والصديق ـ السادسة في المعارف...

وضمّن الكتاب الثالث حول ما يطالب به السلطان تشيداً لأركان الملك وتأسيساً لقواعده يوجد الباب الأول في جوامع السياسة المطلوبة من السلطان . . . وهذا الباب يتفرع إلى ثلاثة فصول : الأول في سياسة السلطان وتحت هذا سياسات كما أسلفنا . . . وفي مبحث السياسة الثانية نجد تفصيلاً عن الأمور العارضة كما تقدم . وقد عالج العارض الرابع موضوع الرسالة ، كما عالج العارض الخامس موضوع الوفود ، وكلا العارضين الرابع والخامس نقترح على القراء مطالعتها معنا تأكداً من أسلوب الكتاب وعلو نفس مؤلفه وبعض المصادر التي يعتمدها أو يتأثر بها . . . مؤملين من ذلك مزيد إلفات نظر لهذا المؤلف الجميل :

قال ابن الأزرق تحت عنوان العارض الرابع :

« . . . ولموقعها ـ أي الرسالة ـ من الملوك عند مسّ الحاجة إليها تخصّها رعايات من السياسة سابقة ولاحقة » .

● الرعاية الأولى : تحقق أن موقع الرسول من السلطان موقع الدليل من المدلول ، والبعض من الكل ، ففي سياسة أرسطو(١) : اعلم أن الرسول يدلّ على عقل من أرسله ، إذْ هو عينه فيما لايرى ، وأذنه فيما لا يسمع ، ولسانه فيما غاب عنه . وقالوا : الرسول قطعة من المرسل . قلت : ومن المشهور قولهم ثلاثة دالّة على صاحبها : الرسول على المرسل ، والهدية على المهدي ، والكتابة على الكاتب .

● الرعاية الثانية : اختيار من يرضى لها لأجل هذا الموقع ففي بقية كلام أرسطو المتقدم مقرراً لما يترتب عليه : « فيجب أن تختاره أرفع من في حضرتك عقلاً وبصيرة وهيبة وأمانة تجنبًا لجميع الريب » .

إذا ماكنتَ متخذاً رسولاً فلا ترسل سوى رجل نبيل
فإن النجح في الحاجات يأتي لطالبها على قدر الرسول

● الرعاية الثالثة : تقسيم الأرسال بحسب اتصالهم بمايطلب فيهم إلى ثلاثة كما يظهر من كلام أرسطو : أولهم الكامل الاتصاف بما شرط فيه وهو المفوض إليه بعد المعرفة بغرض مرسله ، ولذلك لايوصّى لاحتمال أن يرى عند المشاهدة أن الصواب في غير ماوصّى به ، قال :

إذا كنت في حاجة مُرسلاً فأرسل حكيماً ولاتوصه
وإن باب أمرٍ عليك التوى فشاور لبيباً ولا تعصه (٢)

---

(١) ألف أرسطاطاليس كتابه السياسة في تدبير الرياسة لتلميذه الملك الاسكندر ابن فيليبس اليوناني ، وفي مكتبة برلين نسختان منه ، وقد نقله إلى العربية يوحنا البطريق.

(٢) البيت لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب . راجع كتاب رسل الملوك تأليف ابن الفراء تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٧٠

الثاني المتوسط الاتصاف اقتصاراً على الثقة والأمانة والتيقظ ، وهو المقصور على ماألقي إليه من غير زيادة ولا نقص ليؤدي الجواب عليه كما سمعه .

الثالث المقتصر على الأمانة فقط ، وهو الموجه بكتاب ليأتي بجوابه. قلت : والعرف الآن أنه لايعد من الأرسال وإنما يُسمى رقاصاً ورتبته مختلفة عنهم بكثير .

● الرعاية الرابعة : اجتناب تخصيص الوزير بها وإن كان المتصف بأكمل الصفات وأجمعها ، ففي سياسة أرسطو : « إياك أن ترسل وزيرك ولا تخرجه من حضرتك ، فإن في ذلك فساد ملكك » قلت : لأن منزلة الوزير من السلطان منزلة السلطان من الرعية فكما لاتستغني الرعية عن السلطان لا يستغني هو عن الوزير . وقد تقدم تقريره . .

● الرعاية الخامسة : اعتماد التلطف في الوصول إلى المقصود بها والتيقظ لوجوه التصدي إليه تحصيلاً واستجلاباً كما حكى ابن رضوان(١) أن الوزير الشهير أبا عبد الله بن الحكيم(٢) لما وفد رسولاً عن سلطانه ملك الأندلس

---

(١) هو رئيس الكتاب الصدر البليغ أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري من أهل مالقة كان من أعيان كتاب السلطان المستعين بالله سالم المريني. النفح ١٠٧/٦

(٢) أجمعت النسخ المخطوطة التي أشرنا إليها على تسميته هكذا : ابن الحكم والصواب ابن الحكيم . وهو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي وأصل سلفه من أعيان إشبيلية ثم ثم انتقلوا إلى رندة في دولة بني عباد . ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه ، وقد قدم ذو الوزارتين على حضرة غرناطة أيام السلطان أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر إثر عودته من الحج في رحلته التي رافق فيها العلامة أبا عبد الله بن رشيد الفهري فألحقه السلطان بكتابه إلى أن توفي هذا السلطان وتقلد الملك بعده ولي عهده أبو عبد الله المخلوع فقلده الوزارة والكتابة =

على السلطان أبي يعقوب ملك المغرب قال له : مامطلب سلطانك بعد أن فعلنا له كذا وأسعفناه بكذا ، وعدّد ما قدمه إليه من الصنائع الحسنة فقال له : نعم يامولانا رضي الله عنكم ، كل ذلك كان ولم ينكره مولاي ولاجهله لكن لسان حاله ينشد :

أيا ملبسي النعما التي جل قدرها لقد خلقت تلك الثياب فجددا

قال فأكمله مطالبه ، ووفى بحسن تلطفه مآربه .

● الرعاية السادسة : اتقاء التساهل في اختيار الرسول لمايؤدي إليه من عظيم الضرر مع الموالي والمعادي ، فمن بعض الحكماء : « اختر رسولك في الحرب والمسالمة فإن الرسول يلين القلوب ويخشنها ، ويبعد الأمور ويقربها ويصلح الود ويفسده » . وكان أردشير يقول : كم من دم سفكه الرسول بغير حق ، وكم من جيوش قد قتلت ، وعساكر قد انهكت ، ومال قد نهب ، وعهد قد نقض ، بخيانة الرسول وكذبه (١) .

= ثم لقبه بذي الوزارتين ولكن السياسة لم تشغله عن المطالعة والدرس ... إلى أن توفي بحضرة غرناطة قتيلاً غدوة يوم الفطر شوال سنة ثمان وتسعمائة يوم خلع سلطانه ، ومن شعره :

فقدت حياتي بالفراق ومن غدا بحال نوى عمن يحب فقد فقد
ومن أجل بعدي عن ديار ألفتها جحيم فؤادي قد تلظى وقد وقد !

وقد ورد ابن الحكيم سفيراً على السلطان أبي يعقوب يوسف عام ٧٠١ صحبة الوزير عبد العزيز الداني لإحكام عقد الموالاة بين الأندلس والمغرب وقد تم اللقاء بضواحي تلمسان ، مما قيل في رثائه :

قتلوك ظلماً واعتدوا في فعلهم حد الوجوب
ورموك أشلاء ، وذا أمر قضته لك الغيوب
إن لم يكن لك سيدي قبر فقبرك في القلوب

الإحاطة ٢/١٨٠ ، النفح ٢/٦١٨ ، ٥/٥٩٨ ، الاستقصاء ٣/٨٢

(١) التازي : تاريخ المغرب الدبلوماسي ، طبعة فضالة ، ص ٨ — ٩

● الرعـاية السابعة : امتحان الرسول عند ترشيحه للرسالة ، قال الجاحظ : « من الحق على الملك أن يمتحن رسوله محنة طويلة قبل أن يجعله رسولاً » ، ثم حكي عن ملوك الأعاجم أنها كانت تمتحن من تختاره للرسالة بجعله رســـولاً إلى بعض خاصتـه مع جعـل عين عليـه ، فإذا طـابق ماأحصاه العين عليه وعلم صدق لهجته جعله رسولاً إلى عدو له مع بعث العين عليه ، فإن اتفقا فيما رجعا به وعلم أن قد صدقه صيّره رسولاً إلى ملوك الأمم ووثق به وأقام بعد ذلك خبره مقام الحجة . انتهى ملخصاً .

● الرعاية الثامنة : إرداف الرسول بثان أوثالث أو رابع ، وإن كانا اثنين فذلك مما أخذ به بعض حكماء الملوك مبالغة في التحفظ من خيانـة الرسول أوتقصيره . فمن أردشير أنه كان يقول : « يجب على الملك إذا وجّه رسولاً إلى ملك آخر أن يردفه بآخر . وإن وجه رسولين أن يتبعهما باثنين فإن أمكنه أن لا يجمع بين رسولين في طريق ولا ملاقاة ولا يترافقا فيتوافقا فتمَل »(١).
قلت : وهذه مبالغة يعسر العمل بها والميسور منها لايترك .

● الرعاية التاسعة : تربّص العمل بمقتضى ما ورد بـــه الرسول حتى يوقف على حقيقته من جهـة أخرى ، ذكر الجاحظ قائلاً (٢) : على السلطان إذا عاد إليه رسوله بكتاب أو رسالة من ملك ، في خير أو شر ، أن أن لا يحدث في ذلك أمراً حتى يكتب إليه مع رسول آخر بحكاية كتابه الأول حرفاً ، فإن الرسول ربما أحرم بعض ما أمّل فافتعل الكتاب وحرّض المرسل على المرسل إليه وأغرى به كذبا عليه . ثم حكى ما اتفق لرسول عن الإسكندر لما أمر بخلع لسانه من قفاه حين وقف على زيادة منه تعرفها بإعادة الرسول إلى من كذب عليه ذلك الرسول . قلت : « الوقوع في

(١) رسل الملوك ص ٢٥ (٢) التاج في أخلاق الملوك .

ذلك نادر ، والتحفظ منه بهذه المبالغة ربما يتعذر فلا توقف لما ذكر ، والصواب ما يقتضيه الحال والله تعالى المرشد إليه ، والمعين لمن شاء عليه » .

● الرعاية العاشرة : تعلم الرسول ما يجب عليه شرعا وسياسة ، فقد قال النووي في فصل معرفة ما يحتاج إليه المسافر حسبما تقدم عنه : « إن كان رسولا عن سلطان أو نحوه اهتم بتعلم ما يحتاج إليه من آداب المخاطبات وأجوبة المحاورات ، وما يحل من الضيافات والهدايا ، وما يجب عليه من رعاية النصيحة وتوقي الغش والخداع والنفاق والحذر ، ومن التسبب في مقدمات العذر ، إلى غير ذلك مما يتعين عليه » انتهى . من مستحسن ما وفت به الأرسال من حقوق مرسلها في الثناء عليه بحسن السيرة على أبلغ بيان ما حدث به الجاحظ عن الفضل بن سهل قال : كانت رسل الملوك إذا جاءت بالهدايا للمأمون يحمل اختلافهم إلي ، فكنت أسأل رجلا منهم عن سير ملوكهم وأخبار عظمائهم ، فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكهم فقال : بذل عرفه ، وجرد سيفه ، فاجتمعت عليه القلوب رغبة ورهبة ، لا يبطر جنده ، ولا يحوج رعيته ، سهل النوال ، حزن النكال ، الرجاء والخوف معقودان في يده ، فقلت : وكيف حكمه ؟ قال : يرد الظلم ويردع الظالم ويعطي كل ذي حق حقه ، فالرعية اثنان: راض ومغتبط ، قلت : وكيف هيبتهم له ؟ قال : يتصور في القلوب فتغضي له العيون . قال : فنظر رسول ملك الحبشة إلى إصغائي له وإقبالي عليه ، فسأل ترجمانه : ما الذي يقول الرومي ؟ قال له : يذكر ملكهم ويصف سيرته . فتكلم مع الترجمان بشيء فقال لي الترجمان : إنه يقول : إن ملكهم ذو أناة عند القدرة وذو حلم عند الغضب ، وذو سطوة عند المغالبة ، وذو عقوبة عند الاجترام ، وقد كسا رعيته جميل نعمته ، وخوفهم عنيف عقوبته ، فهم يتراءونه ترائي الهلال خيالا ، ويخافونه مخافة الموت نكالا ، وسعهم عدله

وردعتهم سطوته ، فلا تمتهنه مزحة ولا توهنه غفلة ، إذا أعطى أوسع ، وإذا عاقب أوجع ، فالناس اثنان : راج وخائف ، فلا الراجي خائف الأمل ، ولا الخائف بعيد الأجل . قلت : فكيف هيبتهم له ؟ قال : لا ترفع العيون إليه أجفانها ، ولا تتبعه الأبصار إنسانها ، كأن رعيته قطا رفرفت عليهم صقور صوائد(١) . فحدث المأمون بهذين الحديثين فقال : كم قيمتها عندك ؟ قلت : ألفا درهم . قال : يافضل إن قيمتها عندي أكثر من الخلافة ، أما علمت قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قيمة كل امرىء ما يحسن فتعرف أحداً من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين المهديين بمثل هذه الصفة ، فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار ، واجعل العذر مادة بيني وبينها في الجائزة ، فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيت إعطاءهما ما في بيت مال العامة والخاصة دون ما يستحقانه .

وبعد هذا مباشرة ينتقل ابن الأزرق للفصل التالي تحت عنوان (العارض الخامس الوفود) . وللسياسة الفاضلة بهم عنايات :

● العناية الأولى : احتفال السلطان للقائهم بإظهار زينة الملك وجماله ، فقد كان للنبي ﷺ حلة يتجمل بها للوفود والعظماء ، قال القرافي : وذلك أهيب وأوقع في النفوس وأجدر لحصول التعظيم في الصدر ، قال ابن رضوان : فهو أمر عادي شرعي .

● العناية الثانية : إكرام من يرد منهم من ذوي النباهات في قومه ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما وفد عليه زيد الخيل بسط له رداءه وأجلسه عليه وقال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .

● العناية الثالثة : حسن الإقبال عليهم بالتلطف لهم في الخطاب

(١) رسل الملوك ص ٣١

تأنيساً لهم وإدلالاً ، ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان رفيقاً بالوفود ، قلت : كقوله ﷺ لوفد عبد القيس : مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى .

● العناية الرابعة : الإذن في الكلام لمن هو أهل في المقام السلطاني لئلا يتجاسر عليه من لا يستحقه ، ففي وفادة قريش على سيف بن ذي يزن قوله لعبد المطلب جدّ النبي ﷺ إذ كان لا يعرفه وأراد أن يتكلم : « إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك » ، وفي وفادة الحجازيين على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قوله للغلام الذي تصدر للكلام : (ليتكلم من هو أسنّ منك) .

● العناية الخامسة : إفاضة الإحسان على وفد التهنئة مبالغة في البرّ بهم وإدخال السرور عليهم ، قال ابن رضوان : وهي من سنن الملوك الحسنة وكأنها في معرض شكر الله تعالى بإدخال المسرة على خلقه على النعمة المهنأ بها .. انتهى .

شرح إشارة تقدمت بحكايتين فيها جمل من آداب هذا المقام .

الحكاية الأولى : قضية وفادة قريش على سيف بن ذي يزن : يروى عن ابن عباس رضي الله عنه أتاه وفد العرب وأشرافهم وشعراؤهم لتهنئته وتمدحـه ، وأتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم ، وأمية بن عبد شمس ، وخويلد بن أسد ، في عدّة من وجوه قريش ، وأهل مكة ، وأتوه بصنعاء وهو في قصره الذي يقال له غمدان ، فاستأذنوا عليه وهو متضمخ بالعنبر يبصّ المسك من مفارقه ، وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك ، فاستأذن عبد المطلب في الكلام وكان أجل القوم قدراً ، وأعظمهم فخراً ، وأعلاهم نسباً ، وأكرمهم حسباً . ولم يكن سيف يعرفه فقال له : إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك ، فقال عبد المطلب : أيها الملك إن الله عز وجل قد أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، شامخاً باذخاً ، وأنبتك

نباتاً طابت أرومته ، وأعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن . وأنت رأس العرب وربيعها الذي به تخصب ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي يلجأ إليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت فيهم خير خلف ، ولن يخمل ذكر من أنت خلفه . أيها الملك نحن أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بك ، فنحن وفد التهنئة لا وفد التعزية . قال : فأيهم أنت أيها المتكلم ؟ قال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، قال : ابن أختنا؟ قال : نعم ، قال : أدن . فأدناه ، ثم أقبل عليه وعلى القوم ، وقال : مرحباً وأهلاً ، وناقة ورحلاً ، وأمناً ومناخاً سهلاً ، وملكاً فحلاً ، يعطي عطاء جزلاً ، قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء إذا ظعنتم ، فأخبره ببعثة النبي ﷺ من قومه ، وأمر لكل واحد منهم بمائة من الإبل ، وعشرة أعبد وعشر إماء ، وعشرة أرطال ذهباً ، وعشرة أرطال فضة ، وكرش عنبر .. وأمر لعبد المطلب بعشرة أمثال ما أمر لهم .

الحكاية الثانية : خبر وفد الحجازيين على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : يُروى أنه لما ولي الخلافة وفد عليه الوفد من كل بلد ، فوفد عليه الحجازيون فتقدم غلام منهم للكلام وكان حديث السن فقال له عمر : ليتكلم من هو أسن منك ، فقال له : أصلح الله أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استحق الكلام ، وعرف فضله من سمع خطابه من الأنام . ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسّن لكان في مجلسك هذا من الأمة من هو أحق منك . فقال : نعم صدقت ، قل ما بدا لك ، فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين نحن وفد تهنئة لا وفد تعزية ، وقد أتيناك لحق الله الذي منّ علينا بك ، لم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتتنا منك ، وأما الرهبة فقد أمنّا جورك بعدلك ، فقال له عمر : عظني

ياغلام فقال : أصلح الله أمير المؤمنين إن ناساً من الناس غرّهم حلم الله تعالى وطول آمالهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلت أقدامهم فهوَوا في النار ، فلا يغرنك حلم الله تعالى ، وطول أملك ، وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل بك قدمك فتلحق بالقوم ، فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالح هذه الأمة ، ثم سكت . فسأل عمر عن سنّ الغلام فإذا هو من ثماني عشرة سنةً ثم سأله عن نسبه فإذا هو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتمثل بقوله .

تعلّم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهلُ
فإن كبير القوم ، لا علم عنده ، صغيرٌ إذا التفت عليه المحافل
وإن صغير القوم ـ والعلم عنده ـ كثيرٌ إذا ردت إليه المسائل

لعلّ جولة القارىء في كل تلك الرعايات والعنايات والسياسات تعطيه نظرة عن مخطوطة ابن الأزرق التي كانت محلّ اهتمام وتتبع من سائر الملوك والقادة الذين وجدوا فيها سلوى لهم عند الأذكار ، ومرشداً لهم وقت الاختيار ، وإذا كانت الاستطرادات في بعض الأحيان مما لا يستسيغه التسلسل ، فإنّ استطرادات ابن الأزرق على العكس من ذلك ، تشعرك وأنت تتنقل في ثناياها وبين رحابها بأنك فعلاً في بستان مبهج بزهوره المتنوعة ، وثماره اللذة ومناخه المنعش ، وإنّ الذي زاد في قيمة الكتاب ووزنه أن مؤلفه معدود من الخبراء بالسياسة ، العارفين بأحوالها ، عرف الوزارة والسفارة ، كما زاول مهنة الخطباء والقضاء ، فهو لذلك خير من يقدم لنا مثل هذا العطاء ، وأصدق من يحدثنا عن السياسة والرياسة .

الرباط

عبد الهادي التازي
مدير مركز البحث العلمي